الحلقة الرابعة عشرة

(1) (منظور الميناء.. الحمالون ينزلون صناديق البضائع من السفينة.. تجار ينتظرون حملها في عرباتهم.. الأسير يتأمل البحر.. خالد يشرف على نقل الحقائب وأكياس الكتب الى السفينة بعد إنزالها من العربة.. حسن يجلس على إحدى الحقائب، وخالد يدردش معه)

خالد: كنت أنوي أن أعطيك دروسا في التركية لولا أن والدك فاجأني بسفره.. ما كنت أدري أن استقالته قبلت.. إبعث الي برسائل من لبنان تطمّنني عن أحوالكم فتتقوى بالتركية..

حسن: أبي كان غاضبا من أخي محمود الذي ترك كلية الطب والتحق بالأزهر ليدرس الفقه والحقوق.. ولهذا عجّل بالسفر.. أتعرف ماذا أهدتني شهربان ابنة علي باشا؟

خالد: ماذا أهدتك؟

حسن: أهدتني عدسة تكبّر عشرين ضعفا.. نزلت الى الحديقة وكم فرحت حين شاهدت الزرازير الملونة على الشجر، ففي مثل هذا الوقت تتكاثر، وتخرج النمال من أوكارها لتستمتع بالشمس.. انني وضعتها في هذه الحقيبة التي أجلس عليها.. هل تفتحها لي لأريك اياها؟

خالد: والدك هو الذي قفلها ومعه مفتاحها. ولكن ليس لدينا وقت لهذا.. فرغت السفينة من شحنتها وحان الوقت لننقل حوائجنا..
(يصل أحمد فارس وينتحي بالأسير يحادثه)

الشدياق: أريد أن أحدثك بأمر شغلني منذ الفجر.

الأسير: خير انشاء الله!

الشدياق: كلفت بأمر صعب مع رجل صعب.

الأسير: لا تقل لي الغ سفرك، فلا يجوز أن ننعزل عن القصر ونترك المنافقين يسرحون في حاشية السلطان.

الشدياق: لا، انه في أمر مباح لكل انسان، ولكنه معك لا يخلو من الطعان، فطبعك لا يوحي بالأمان..

الأسير: هات ما عندك!

الشدياق: جاءك خطيب لابنتك، طبعه سليم وخلقه قويم، وهو جدير أن يكون لابنتك الأليف الحميم.. انه قانع عزوف وليس كالذي يرى من تبغضه فأحبها، أو تجفوه فكلف بها، أو تعرض عنه فتعرّض لها، أو ترميه بحقيبتها فجن بها..

الأسير: لست أفكر في عريس لابنتي قبل أن تبلو من مرضها.

الشدياق: يا يوسف، أنت الذي شغلت أهم المناصب في الإفتاء والقضاء وخرّجت كبار الشخصيات والعلماء ينقصك شيء واحد! أعذرني ان قلت أنك لا تشعر بهموم ومشاكل الشباب.. قمعت أحاسيس شبابك بتحصيل العلم والجهد من أجل الناس والحياة.. لم أقرأ لك الاّ القليل النادر من شعر الغزل، فكيف تحس بانسان يتوهج قلبه بالحب لابنتك، ويصطفيها دون غيرها لتكون له شريكة حياته؟.. لا يريد منك قبل أن تسافر الاّ أن تقرأ الفاتحة وتبارك رغبته في الإنتساب الى أسرتك!

الأسير: ولكن أين وكيف تعرّف اليها؟

الشدياق: ألا تكفي النظرة العابرة أن توقظ حبا كبيرا في وجدان إنسان؟ ليس له منها الاّ نظرة هوى وإشارة، ودمعة في العين مثارة.. فأي خير في عزوبة شاب رزقه الله القوة والعافية، ولم يتحمل أعباء الهوى دون أن يطمئن باله؟

الأسير: في أسرتنا يحدث الهوى بعد الزواج لا قبله.. وابنتي في وضع لا يصلح للحب ولا للزواج.. فلا تنبئني باسم هذا الذي يطلب يدها ولو كان إبن السلطان!.. فاصمت عن هذا الموضوع.. ان علي باشا قدم وابنته..

الشدياق: سأحدث علي باشا في هذا الموضوع، فهو على معرفة بالشاب، وهو يعامل ابنته بانطلاق ويترك لها حرية الإختيار مما لا تحظى به حتى فتيات الغرب.. الأرحام يا أخي من الرحمة اشتقت، والى المصاهرة انطلقت، وأنت يا يوسف لا تريد لابنتك أن تعنس في بيتك، بل تريد أن تفرح بأحفادك (ينزل علي باشا من العربة وتنزل شهربان بعده.. تسلم على أحمد فارس يدا بيد، وتحني الرأس برشاقة للشيخ، ثم تذهب الى العربة التي نزلت منها لتوها حنيفة وفريدة وسناء.. تشم عطر الورد الجوري الذي أهدته لفريدة يوم العيد.. كانت ترتدي المعطف الذي حاكته لها وتضع اللفحة والقبعة كاليشمق الصوفي على رأسها وتلف باللفحة رقبتها)..

علي باشا: وداع الصديق موجع للقلب يا أبا محمود، وخصوصا أن بحارا تفصل بيننا.. لا أدري اذا كنا سنلتقي ثانية! (يعانقه، ويخلع ساعته الذهبية ويقلده اياها) حتى تذكرنا وتذكر طلابك في استنبول الذين يكنون لك أعمق المشاعر ويعزّ عليهم فراقك! (يخرج صرة من العملة الذهبية) جئتك بمستحقاتك عن الترجمات التي قمت بها لنظارة المعارف.. (يمد يده الى جيبه الداخلي ويخرج صرة صغيرة) وهذه للآنسة فريدة عن الشهور التي درّستها في مدرسة الإناث، وعن راتبها الذي كان جاريا وهي في إجازة مرضها..

الأسير: (يتمنع في أخذ الراتب الجاري أثناء مرضها) يكفي نصف هذا المبلغ فاخصم منه النصف.

علي باشا: أنا لا أستطيع أن أردّه الى خزينة الدولة بعد أن خرج منها.. انها عدالتنا التي نعامل بها موظفينا ولا نميزها في هذا!

الشدياق: (ضيق الصدر) كم يظلم هذه الفتاة يا علي باشا.. توسّطني شاب لخطبة ابنته، لا يريد منه الاّ أن يعده بالزواج منها ويقرأ الفاتحة كي يطمئن باله وهو يرفض.. انني أحاوره منذ ساعة قبل مجيئك ولكنه مصرّ على عناده.. يريد أن يقطع نصيب الفتاة، ويحرم الشاب الذي توله في حبها من أن تكون له زوجة المستقبل..

الأسير: (بغضب) كفّ عن هذا الحديث يا فارس!

علي باشا: من هو الشاب؟ قد لا يكون كفؤا لها..

الشدياق: كلكم تعرفونه! انه خالد الذي يعتبره إبنا له، ويشيد بأخلاقه وموهبته.. كأنما الرجال الذين عرفوه لا يتمنون أن يكون لهم صهرا!

ألأسير: (وقد أخذته المفاجأة) أهو خالد الذي كنت تحدثني عنه؟ ولم يطلب وساطتك ليخطب فريدة؟

الشدياق: لأنه يخشاك ويخشى ردود فعلك في أن تقابل طلبه بالإعراض، وتعامله كما عامل أهل ليلى مجنونها قيسا في قصص أهل الهوى..

الأسير: ولكن الفتاة مريضة.. انني أظلمه لو علقت مصيره بفتاة هي تحت رحمة الله.. لا، لا أريدها أن تحمل أعباء الهوى قبل أن تشفى..

الشدياق: ما أدراك أن الهوى لا يشفيها ويعزز إرادة الحياة عندها؟ وما أدراك أنها لا تحمل له في جوانحها الهوى المكبوت الذي يضنيها؟..

الأسير: سأذهب اليها وأستشيرها (يتقدم من فريدة فيشمّ رائحة العطر الجوري يفوح منها.. ان ابنته عاشقة تتعذب وتموت بين يديه وهو لا يدري بلواعج قلبها) يافريدة، ان خالد يخطبك مني فهل توافقين؟ (ولم تجب فريدة بل أصابها الدوار ووقعت على الأرض مغميا عليها)

شهربان: طبعا موافقة! فلا تعنتها بالسؤال يا أبا محمود!

شهربان: (تصحّي فريدة، وأمها تعطيها من الشراب المقوي فتستفيق.. حسن يركض وينادي خالد.. الرجال يضعون أيديهم فوق بعضها ويقرؤون الفاتحة! صفير السفينة للركاب.. الأسير يودّع أصحابه.. ينصرف الشدياق الى عمله)

علي باشا: (لخالد) ما رأيك أن أعطيك إجازة شهر ترافق أسرة الشيخ، وتحتفل بخطبتها أمام الأهل وتفرح قلبها، ثم تعود الينا لتصمّد لها مهرها اللائق بها؟ (يدسّ في يده صرة للرحيل) هذه دين عليك! إلحق بها.. أسرع.. هيا وداعا والى اللقاء!